القرن العاشر الميلادى

١ — مذاهب أربعة

فى القرون الأولى ، وفى بداية المدنية الانسانية الحديثة ، قامت مذاهب أربعة . ثلاثة منها كانت على باطل ، ومذهب واحد كان على صواب ، ولا جرم أن ثلاثة المذاهب الاولى ، كان لها الأثر الأول فى دمغ الفكر الانسانى بطابع معين ، فعد بنشوء الافكار الحرة قروناً طوالا

أما المذاهب الثلاثة الاولى وهى المذاهب الباطلة فهى :

أولا — المذهب « الجيوسنتيرى » Jeocentric وهو المذهب الذى كان يعتقد أهله بنظام عالمى تستقر الارض فى وسطه . فكان المعتقد أن الارض فى وسط النظام الكونى ، وأن كل السيارات ومعها الشمس إنما يدرن من حولها ؛ وأن الارض ليست محور نظام جزئى ، بل هى مركز النظام فى مجموعه بما فيه المجرات العظيمة والسدم الكبيرة كسدم الجبار والمرأة المسلسلة وغيرهما ، على خروج هذه النظم عن حدود نظامنا هذا بما لايقدر إلا بآلاف السنين النورية

ثانياً — المذهب « الايجوسنتيرى » Egocentric وهو المذهب الذى كان يعتقد أهله بأن النفس الانسانية أو الذات البشرية . هى المرجع والمآل من خلق العالم ، وأن الانسان كائن مختار من الله وأنه أفضل جميع المخلوقات بأنواعها من جماد ونبات وحيوان ، وأن تكوينه أشرف التكاوين ، وأن روحه مستمدة من روح الله وأنه مصنوع على هيأة الله .

ثالثاً — المذهب « الثيوسنتيرى » Theocentric وهو المذهب الذى كان يعتقد أهله أن اللاهوت أساس العلم الانسانى ، وأن تفسير كل مافى الكون من الاسرار يجب أن لايتعدى حدود التفاسير التى فسر بها أقطاب الكنيسة الكتب المقدسة ، وعلى رأسهم البابا المعصوم عن كل خطأ المبرأ عن كل زلل . ظل الله فوق الارض ، ووكيل الله فى تصريف حالات العالم الانسانى .

وهذه المذاهب الثلاثة باطلة . فالمذهب الاول أبطله غاليلو العظيم باستكشافه أن

الأرض تدور من حول الشمس ، وأن النظام الشمسى من أضأل النظم الفلكية التى يحتويها الكون اللامتناهى . والمذهب الثانى أبطله العلم الشوئى ، إذ أظهر العلماء أن الانسان حيوان ارتقى على مدى الازمان ، ومنهم من يشرفه فيجعله من سلالة صورة من صور القرديات انقرضت ، وأنها تمت بأقرب الصلة الى القرود العليا ، ومنهم من يرده إلى حيوان أدنى من ذلك ، أى الى « الترسيوس » — Tarsier كما يقول العلامة « أوزبورن » . والمذهب الثالث نقضه العلم الاستقرائى الحديث ، بعد أن ظهر للناس أن الحياة آية أرضية وأن العمل والانتاج والسعى وراء الرزق أول ما يجب أن ينصرف له الانسان ، وأن الحضارة لن تقوم على المذاهب اللاهوتية ـ الثيولوجية ـ الخلافية ، وإنما تقوم على حرية الفكر والقدرة على الاختراع ، وامكان استخدام القوى الطبيعية لفائدة الانسان

أما المذهب الصحيح فهو :

رابعاً — المذهب « الهليوسنترى » — Heliocentric — وهو المذهب الذى نقض به غاليليو المذهب « الجيوسنترى » إذ أثبت أن الشمس مركز النظام الشمسى وأن النظام الشمسى واحد من ملايين النظم التى يتكون منها الكون الاوسع .

٢ — شكوك أربعة

بعد أن نقضت المذاهب الثلاثة الاولى ، وثبت المذهب الرابع على أساس علمى لا يأتيه الباطل من حيث سلمت اليه ، استبان للعلماء والمشتغلين بعلم الفلك منهم على الاخص ، انه يكاد يكون من المستحيل ، واذا تسامحوا قالوا إنه يكاد يكون من المتعذر ، ان يبلغ الفكر الانسانى المحدود الى فتح مغاليق الكون والوقوف على أسراره . فان وحدة هذا الكون قد تبلغ من الاتساع والعظمة مبلغا لا يمكن لعقل تصوره . وقد تبلغ تراكيبه العنصرية من التشابك والاختلاف مبلغا يتعذر على التجاريب اكتناه ما فيها من الاسرار والحقائق . بجانب هذه الحقيقة الاحتمالية حقيقة أخرى جلية واضحة . هى اننا تقدمنا علميا على أهل القرون الاولى ، من الناحيتين النظرية والعلمية . ولقد غزى الشك نواح من الفكر الانسانى كان يظن فى القرون الوسطى أن كلمة الفصل فيها قد قالها أهل اللاهوت وأساطين الكنيسة . أما هذا الشك فقد تميز فى أربع صور رئيسية تفرعت منها شجرة الشك الكبرى التى نرى ثمارها اليوم عالقة بفروع كل نبتة من نبتات المعرفة الحديثة .

الشك الأول

تناول خلق العالم إذ كان التصور أن الدنيا صيدت كما تصاد سمكة من بحر الماء ، وأن الذى اصطادها طائر أو حيوان من الحيوانات الفارضة . وهنا لك تصور شعرى آخر تعتقد به قبائل « الماوورى » محصله أن الارض والسماء كانتا « عروسين » ثم افترقتا إلى الأبد بفعل قوة كانت متأصلة فيهما ، وأنهما حتى الآن يتحسران على هذا الفراق ويرسلان الدمع فى صورة ندى الليل وضباب الصباح (١) وهذه الأشياء جديرة بالعقل الانسانى فى بدائيته وفى غرارته الأولى . فلما ارتقى الفكر وغزاه الشك واتسعت المعارف ، لم يصبح بنا من حاجة لان نفكر فى الكون على أساس هذه الخيالات .

الشك الثانى

تناول الفكرة فى إله مضى يصارع المادة « العاصية » محاولا أن يرد « الماء » Chaos إلى نظام . ويرجع تاريخ هذه الفكرة إلى تلك الازمان التى جهد الانسان فيها لكى يخضع « الأرض » لحاجاته وضروراته . أما الشك فقد غزى العقل فى هذه المسألة من ناحية أن المادة ليست « عاصية » ، بل هى تحتاج إلى علاج . وأنها ليست فى عماء ، بل هى سداها النظام . لهذا تبادر إلى العقل أن « إلها » لا يستطيع أن « يعالج » مثل هذا الأشكال البسيط ، لا يمكن أن يكون إلها على اطلاق القول

الشك الثالث

تناول الفكرة فى أن الكون انما خلق من أجل الانسان وحده ومن أجل منفعته المطلقة . ففى ذلك الزمان الذى اعتقد فيه الانسان أن كل النظام الكونى هو عبارة عن هذه الأرض « المسطوحة » وأن السماء ليست سوى وعاء مقلوباً من فوقها ، وان الكواكب عبارة عن « ثقوب » يطل منها الله على أهل الأرض أثناء الليل ، كان من الضرورى أن يعتقد الانسان ، وهو النوع الغالب فوق الأرض ، إن هذا النظام لم يخلق إلا من أجله . أما بعد أن تراجعت الارض الى الوراء و أصبحت فى نظام الكون أشبه بذرة ميكروسكوبية بجانب جبال الخلايا العظيمة ، وأنها سيار صغير جهد الصغر من ضمن سيارات أخرى تدور من حول الشمس ، بدأ الانسان يحقق قيمته الصحيحة بازاء الكون

---

(١) أن السموات والارض : كانتا رتقا فتقناهما

الشك الرابع

تناول الفكرة فى أن خطيئة الانسان الاولى كانت سيئاً فى تعديل يتناول اساس النظام الاصلى كما تميز فى فكر الله ، وأن « خلاصه » لا يزال شغل الله الشاغل . على أن هذه الفكرة لدليل قوى على ضعف الارادة الانسانية . فاذا كان لها من فائدة لنا فهى هذه ، أما من الناحية الاخرى ، فانها تظهر لنا ان صانع الكون « إله » يناقض نفسه ، فى حين انها تبالغ فى قيمة الانسان وموضعه من نظام الاشياء .

٣ — عصر الايمان

اذا وعيت هذه المذاهب الاربعة وهذه الشكوك الاربعة ، وقارنت بينها ، استطعت على وجه التقريب ان تتصور شيئاً من حقيقة الفكرة التى قامت فى عقول الناس خلال القرون الوسطى ، تلك الفكرة التى لم ينقذ الناس من ظلماتها الاحادث بسيط يتكرر كل يوم ، هو بزوغ شمس اليوم الاول من شهر يناير سنة ١٠٠١ من التاريخ الميلادى . فقد شاع الاعتقاد فى ذلك الزمان ان القرن العاشر الميلادى هو آخر الدنيا وأن الساعة سوف تقوم فى نهاية اليوم الاخير من شهر ديسمبر سنة الف من الميلاد ، وأنه فى ذلك اليوم سوف يعود « عيسى » من السماء الى الارض ، ليحكم بين الناس ، الاموات منهم والاحياء ، ويقرر مصيرهم . ولقد قوى هذا الاعتقاد وزاد فى النفوس ثباتاً ما كان يحدث من القحط الشديد وانتشار الاوبئة التى كان يتكرر حدوثها بين آن وآن ، والتى كان يزعم أهل اللاهوت انها نذر تنذر الناس باقتراب الساعة وفناء العالم

ولقد هبت على العالم النصرانى ، وعلى الاخص فى أوروبا ، عاصفة من الخيال اللاهوتى أو الجنون الدينى ، اكتسحتها وامتدت الى كل ارجائها . ولقد تدفقت سيول المهاجرين الى كل الاماكن المقدسة التى كانت منتشرة فى انحاء العالم النصرانى ، فتفشت فيهم الامراض وأثقلتهم المتاعب ، فكان منهم من يموت فى الطريق ومنهم من يصل الى مقصده متعباً منهوكاً جسما وعقلا ، مريض النفس خائر القوى ، بل كثيراً من مات منهم تحت الاقدام على ابواب الاماكن المقدسة وقد تزاحمت عليها زمر المسوقين اليها بدافع المعتقد الباطل

وكنت ترى هنا وهناك جموعا تعرت من ثيابها وركبت صفوفا على جانبي الطرق تسير بهم حملة السياط ، يضربونهم بسياط من الجلد المعقد تقطر من دمائهم ، مرددين باصوات عالية كلمتهم المعروفة : اقتربت الساعة Dies irae: dies irae

٤ ــ الليلة الاخيرة

ولاجرم أن العالم النصرانى فى ذلك الحين كان مغموراً فى ذلك الشعور العميق ، شعور اقتراب الساعة وموقف الحساب الاخير ، يوم تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وظل الناس ينتظرون زلزلة الساعة و « إن زلزلة الساعة شيء عظيم » .

واقتربت الساعة عند منتصف الليل من اليوم الاخير من شهر ديسمبر سنة الف بعد الميلاد . فاذا النسمات تهب بليلة عليلة ، واذا السماء ترسل أضواءها الخالدة ، واذا السيارات تسبح فى أفلاكها ، واذا الساعة تمر على الارض كما مرت من قبل منذ ملايين كثيرة من السنين . ثم تمر الساعة المنتظرة فلا زلزلة ولا اضطراب . وتمر الساعات متتالية ، واذا الفجر يطلع وإذا الصبح يتنفس واذا الشمس تشرق كما أشرقت على الارض منذ أن مر بجوارها ذلك النجم الضال الكبير الذى يتخيله السير « جينز » ماراً خارج فلك نبتون ، واليوم بالضرورة خارج فلك « إيكاروس » ، فاجتذب من سديم الشمس « ذراعاً » امتد اليه وأخذ يدور من حول الشمس ثم تكاثف حول مراكز معينة فكانت السيارات ، ثم اختفى « النجم الضال » فى أغوار الفضاء السحيقة ، قبل أن يجتذب اليه بقية ما امتد اليه من « ذراع » الشمس السديمية .

وشعر الناس بحقائق الحياة . شعروا بالجوع والعطش فأكلوا وشربوا ، وشعروا بالتعب فناموا ، وشعروا بضرورة السعي من أجل الحياة فسعوا فى مناكبها .

هذا الحد الفاصل كان نهاية الفكرة اللاهوتية لابسة أخبث صورها الخيالية وأول عهد الانسان باستيقاظ الفكر من خمول القرون الاولى ، منذ ظهور أول رسول من رسل النصرانيه فى الغرب .